مجموعة سيرة الرسول ﷺ

بإشراف

محمد أحمد برانق

٦

نور وضياء

الطبعة الأولى المعدّلة

دار المعارف

ناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع

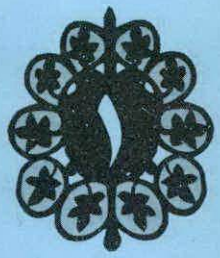

أَشَارَ مُحَمَّدٌ عَلَى أَتْبَاعِهِ أَنْ يَبْتَغُوا فِى أَرْضِ اللهِ مَهْرَباً . عَسَى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِى ذٰلِكَ فَرَجٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، مِنْ إِيذَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِيَّاهُمْ ؛ فَلَمَّا سَأَلُوه :

وَإِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ يَارَسُولَ اللهِ ؟

نَصَحَ لَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، لأَنَّ بِهَا مَلِكاً لايُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِىَ أَرْضُ صِدْقٍ .

عِنْدَ ذٰلِكَ خَرَجَ فَوْجٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، مُسْتَخْفِينَ مِنْ أَعْدَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ ، وَجَاوَرُوا نَجَاشِىَّ الْحَبَشَةِ

الْمَسيحيَّ ، فكانَ جِوارُهُ خيرَ جوارٍ .

وَأَحْقَدَتْ هٰذِهِ الْهِجْرَةُ قُرَيْشاً وَلَمْ تَرْضَ عَنها !

لِمَ لَمْ تَرْضَ قُرَيْشٌ عَنْ هِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ غادَرُوا مكَّةَ وَأَراحُوا قُرَيْشاً مِنْهُمْ ؟ !

كانت تَخشاهُمْ ، وتَخشَى مُؤازرتهُمْ مِنَ الْخَارِجِ ، فتشْتَدُّ بِذٰلِكَ سَواعِدُهُمْ ، وَتَعُمُّ رِسالتُهُمْ ، وَيَعلُو صَوْتُهُمْ ، فيَقَعُ مَا يَخَافُونَهُ لأَصْنَامِهِمْ ، وَتَزُولُ مكانَتُهُمْ بينَ قَومِهِمْ ، وَعِنْدَ الْعربِ جَمِيعاً .

فَأَرْسَلُوا إِلَى نَجَاشِيِّ الْحبشَةِ بِرَسُولَيْنِ مِنْهُمْ : هُما عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ؛ مُحَمَّلَيْنِ بالْهَدَايَا الطَّرِيفَةِ ، لِيَطْلُبُوا مِنْهُ رَدَّ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِمْ ، وَالْعَمَلَ عَلَى إعادَتِهِمْ لِبَلَدِهِمْ .

فَلَمَّا وَصَلا إِلَى الْحَبَشَةِ قَابَلاَ الْبَطارِقَةَ ، وَقَدَّمَا إليهِمْ مِنَ الْهَدَايا وَما استَمالاَهُمْ إِلَيْهِمَا .

ثُمَّ قَابَلاَ النَّجاشيَّ ، وَقَدَّمَا إِلَيهِ مَايَحْمِلاَنِ مِنْ هَدَايَا ، وَقَالاَ لَهُ :

أَيُّها الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَدْ ضَوَى (لَجَأَ) إِلى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمانٌ سُفَهاءُ ، فارَقُوا دِينَ قَومِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فى دينكَ ، وَجاءُوا بِدِينٍ ابتَدَعُوهُ ، لانَعْرِفُهُ نَحْنُ ولاَ أَنْتَ ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِليكَ فيهِمْ آباؤُهُمْ وَعَشيرَتُهُمْ ؛ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيناً (أَىْ أَبْصَرُ بِهِمْ) وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيهِمْ .

وَسَارَعَ البَطَارِقَةُ إِلى تَأْيِيدِ كَلاَمِ رَسُولَىْ قُرَيْشٍ ، يَحُثُّونَ الْمَلِكَ عَلى التَّسْلِيمِ بِمَا جاءَ الرَّسُولاَنِ مِنْ أَجْلِهِ ، وَلكِنَّ الْمَلِكَ أَبى إِلاَّ أَنْ يَسْمَعَ إِلى هؤُلاَءِ الَّذِينَ احتَمَوْا بِهِ ، وَاختَارُوا جِيرَتَهُ ؛ فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِمْ لِيَستَمِعَ إِلى كَلامِهِمْ ، وَكَانَ هٰذَا أَخوفَ مَا يَخَافُهُ الرسُولانِ .

فَلَمَّا جَاءَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، سَأَلَهُمْ :

مَاهٰذَا الدِّينُ الَّذِى فَارَقْتُمْ فِيهِ قَومكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فى دِينى ، ولاَ فى دِينِ أَحَدٍ مِنْ هٰذِهِ الْمِلَلِ ؟

فَرَدَّ عَلَيهِ جَعْفَرُ بْنُ أَبى طَالِبٍ ، فَقالَ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوماً أَهْلَ جَاهلِيَّةٍ : نَعبُدُ الأَصْنامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيتَةَ ،

وَنأْتى الْفَواحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسىءُ الْجِوَارَ ، وَيأْكُلُ الْقَوىُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ؛ حَتى بَعَثَ اللهُ إِلينا رَسُولاً مِنَّا : نعْرِفُ نَسَبَهُ ، وصِدْقَهُ ، وأَمَانَتَهُ ؛ وَعَفَافَهُ : فَدَعَانَا إِلى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخلَعَ ما كنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآباؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّماءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَواحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ (الْعَفِيفَاتِ) ؛ وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ فَصَدَّقْناهُ ، وآمَنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْناهُ عَلَى مَاجَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ . فَسَخِطَ عَلَينَا قَومُنَا : فَعَذَّبونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِيننَا ؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثانِ . فَلَمَّا ضَيَّقُوا عَلَيْنا خَرَجنَا إِلَى بِلادِكَ ، وَاخترْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فى جِوارِكَ ، وَرَجَونَا أَلاَّ نُظلَمَ عِنْدَكَ .

فَقَالَ النَّجَاشىُّ :

هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ شَىْءٌ تَقْرَؤُهُ عَلَىَّ ؟

فَقَرَأَ جَعْفَرٌ عَلَى النَّجاشى بَعْضَ آياتٍ مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ . فتأَثَّرَ النَّجَاشىُّ

وَبكَى حتى بَلَّتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ ، وتأثَّرَ بطَارِقَتُهُ وَبكوْا حتى بَلَّتْ دُمُوعُهُمْ لِحَاهُمْ وَمَصَاحِفَهُمْ . ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِىُّ لِجَعْفَرٍ :

إنَّ هٰذِهِ الْكلِمَاتِ تَصْدُرُ مِنَ النَّبْعِ الَّذِى صَدَرَتْ مِنْهُ كلِمَاتُ عِيسى .

وقَالَ لِرَسُولَىْ قُرَيْشٍ : انْطَلِقَا ، فَلاَ وَاللهِ لاَ أُسَلِّمُهُمْ إِلَيكُمَا أَبداً .

وَهكَذَا رَفَضَ النَّجاشِىُّ الْمَسِيحِىُّ أَنْ يُسلِّمَ المُسلِمِينَ إِلَى أَعْدَاءِ الإِسْلامِ ، وَرَدَّ عَلَيهِمْ هَدَايَاهُمْ ، وَلَمْ يَقبَلْ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيئاً مِنْ حَدِيثِ الرَّسُولَيْنِ ، فَعادَا إِلى قَومِهِمَا يَجرَّانِ أَذْيالَ الْفَشَلِ وَالْخَيْبَةِ . وَبَقِىَ الْمُسْلِمُونَ فى الْحَبَشَةِ فى خَيرِ دَارٍ عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ .

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا سَيُلاَقِى الْمُسْلِمُونَ مِنْ تَأْيِيدٍ. فَاجْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْهُمْ وَعَقَدُوا مُؤْتَمَراً بِزَعَامَةِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ - وَكَانَ رَجُلاً مُسِنًّا ذَا شَرَفٍ فِيهِمْ - يَتَدَاوَلُونَ فِى أَمْرِ مُحَمَّدٍ ؛ فَقَالَ لَهُمُ الْوَلِيدُ :

لَقَدْ قَرُبَ مَوسِمُ الْحَجِّ ، وَسَتَفِدُ الْوُفُودُ عَلَيكُمْ فِيهِ ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ ، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْياً واحِداً تَقُولُونَهُ عَنهُ ، وَلاَ تَختَلِفُوا فِيهِ فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَيَرُدَّ بَعْضُكُمْ قَولَ بَعْضٍ .

قَالُوا : أَقِمْ لَنا رَأْياً نَقُولُ بِهِ يَا أَبا عَبْدِ شَمْسٍ .

قَالَ : بَلِ ائتُونى بِمَا عِنْدَكُمْ مِنْ آراءٍ .

قَالُوا : نَقُولُ عَنْ مُحَمَّدٍ إِنَّهُ كَاهِنٌ .

قَالَ الوَلِيدُ : لا واللهِ مَاهُوَ بِكَاهِنٍ ؛ لَقَدْ رَأَيْنا الْكُهَّانَ ، فَمَاهُوَ بِزَمزَمَةِ الْكَاهِنِ (وهى الْكَلَامُ الْخَفِىُّ الَّذِى لايُسْمَعُ وَلايُفْهَمُ) ، وَلاسَجْعِهِ .

قَالُوا : نَقُولُ مَجنُونٌ .

قَالَ : مَاهُوَ بِمَجنُونٍ ؛ لَقَدْ رَأَينَا الْجُنُونَ وَعَرَفْناهُ ، فَمَا هُوَ بِصِفَتِهِ ، وَلاتَخَالُجِهِ ، وَلاوَسوَسَتِهِ .

قَالوا : فنَقُولُ شَاعِرٌ .

قَالَ : مَاهُوَ بِشَاعِرٍ ؛ لَقَدْ عَرَفنَا الشِّعرَ كلَّهُ : رَجَزَهُ وَهَزجَهُ وَقَرِيضَه وَمَقبُوضَهُ وَمَبسُوطَهُ ؛ فَما يَأْتى بِهِ لَيْسَ بِالشِّعْرِ .

قَالُوا : فنَقُولُ سَاحِرٌ .

قَالَ : مَاهُوَ بِسَاحِرٍ ؛ لَقَدْ رَأَينَا السُّحَّارَ وَسِحرَهُمْ ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلاعَقْدِهِمْ (وَكانَ السَّاحِرُ يَعْقِدُ خَيطاً ثُمَّ يَنفُثُ فيهِ) قَالُوا : — وَقَدْ أَخَذْتُهُم

الْحِيرَةُ – :

إِذَنْ ؛ مَاذَا نَقُولُ فيهِ يَا أَبَا عَبدِ شَمْسٍ ؟ !

قَالَ : وَاللهِ إِنَّ لِقَولِهِ حَلاَوَةً ، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذْقٌ (وَالْعَذْقُ النَّخلَةُ – أَىْ ثَابِتٌ ثُبوتَ النَّخْلَةِ) وَإِنَّ فَرعَهُ لَجَنَاةٌ (طَيِّبٌ مُثْمِرٌ) وَمَا أَنتُمْ بِقَائِلِينَ عَلَيهِ مِنْ هٰذَا إِلاَّ عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ . وَإِنَّ أَقرَبَ الْقَولِ فِيهِ أَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ جَاءَ بِقَولٍ ، هو سِحرٌ ، يُفَرِّقُ بِهِ بَينَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ ، وَبَينَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ ، وَبَينَ الْمَرْءِ وَزَوْجَتِهِ ، وَبَينَ الْمَرءِ وعَشِيرَتِهِ .

وَانْفَضَّ الْمُؤْتَمَرُ ، وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنْ يَقُولُوا هٰذَا الرَّأْىَ فى مُحَمَّدٍ لِوُفُودِ الْحُجَّاجِ الَّذِينَ سَيَفِدُونَ عَلَيْهِمْ فى مَوْسِمِ الْحَجِّ .

فَلَمَّا جَاءَتْ هٰذِهِ الْوُفُودُ ، كَانُوا لَهَا بِالْمِرْصَادِ : يُحَذِّرُونَهَا مُحَمَّداً بِرَأْىٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ ، وَيُخَوِّفُونَهَا مِنْهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يُرَدِّدُونَهَا جَمِيعاً ، هى : مُحَمَّدٌ سَاحِرٌ ، جَاءَ بِقَولٍ هُوَ سِحرٌ .

وَعَادَتْ وُفُودُ الْعَرَبِ إِلَى أَقْوَامِهَا بِخَبَرِ مُحَمَّدٍ ، فَانتَشَرَ ذِكْرُهُ فى بِلاَدِ

الْعَرَبِ كُلِّهَا ؛ مِمَّا شَوَّقَ الْكَثِيرِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِى كَشْفِ كُنْهِهِ وَسِرِّهِ !

وَهٰكَذَا نَشَرَ الْمُشْرِكُونَ أَمرَ مُحَمَّدٍ مِنْ حَيْثُ أَرادُوا أَلاَّ يَفْعَلُوا ! !

فَكانَ لانْتِشَارِ اسْمِهِ بَيْنَ مُشْرِكِى الْعَرَبِ أَثَرٌ أَىَّ أَثَرٍ . كَانَ هٰذَا أَخوفَ مَايَخافُونَهُ ؛ كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ دَعوَةِ مُحَمَّدٍ عَلَى مُتْعِهِمْ وَلَهْوِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَإِثْمِهِمْ ، أَكثَرَ مِمَّا يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يُحَافِظُونَ عَلَى دِينِهِمْ وَدِينِ آبائِهِمْ . وَالآنَ هَاهِىَ ذِى دَعوَتُهُ تُهَدِّدُ مَتاجِرَهُمْ وَمَغانِمَهُمُ الَّتِى يَتَّجِرُونَ بِها مَعَ زُوَّارِ أَصْنَامِهِمْ ، وَيَغْنَمُونَ مِنْ وَرَاء وُفُودِهِمْ عَلَيهِمْ مَغْنَماً أَىَّ مَغْنَمٍ !

لاَ . . لَنْ يَسْكُتوا عَلَى هٰذا الأَمْرِ ، وَلَنْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ بَعْدَ اليَوْمِ ! ! فلاَ صَبرَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَلا هَوَادَةَ مَعَ مُحَمَّدٍ ، وَلاَ حِلْمَ وَلارَأْفَةَ مَعَ مَنِ اتَّبعَ مُحَمَّداً !

كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْقادِرُونَ يَبتَاعُونَ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمَوالى وَالإِمَاءِ مِنْ أَصْحَابِهِمْ الْمُشْرِكِينَ ، وَيُعْتِقُونَهُمْ لِيُخلِصُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِى

كَانوا يَصُبُّونَهُ عَلى رُءُوسِهِمْ لِيَفْتِنُوهُمْ بِهِ عَنْ دينِهِمْ ، فَفَطِنَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى أَنَّ هٰذَا الأَمرَ يَزِيدُ الْمؤْمِنِينَ كَثرَةً وَمَنَعَةً ، فَامتَنَعُوا عَنْ بَيْعِ مَوَالِيهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ ، حَتى يُعَذِّبوهُمْ وَيُعِيدُوهُمْ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ .

ثُمَّ زَادُوا فِيمَا كَانُوا يُؤْذُونَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بَقوا إِلَى جَانِبِ مُحَمَّدٍ ، وَلَمْ يُهَاجِرُوا فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ .

كَمَا زَادُوا فى النَّيل مِنْ رَسُولِ اللهِ نَفْسِهِ ، بِرَغْمَ مَا كَانَ يُجَاهِرُ بِهِ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ مِنْ بَسْطِ حِمَايَتِهِ عَلَيْهِ ، وَيُنَادِى فى عَشِيرَتِهِ بِمَنعِهِ وَالذَّوْدِ عَنهُ .

دَعَا مُحَمَّدٌ رَبَّهُ أَنْ يَهْدِىَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لِلْحَقِّ ، وَأَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلإِيمَانِ ، لِيَعْتَزَّ بِهِ الإِسْلاَمُ . لأَنَّ عُمَرَ رَجُلٌ فِى مُقْتَبَلِ الرُّجُولَةِ وَفُتُوَّتِهَا ، ذُو عَزْمٍ وَقُوَّةٍ وَبَأْسٍ ، لاَيَهَابُ هَيْبَةً ، وَلاَيَخْشَى خَشْيَةً ، وَلاَ يَعُوقُهُ عَائِقٌ عَمَّا يَعْتَزِمُ أَنْ يَفْعَلَ . لِذَا كَانَ شَدِيداً فِى عِدَائِهِ لِلإِسْلاَمِ ، قَاسِياً فِى إِيذَائِهِ لِلْمُسْلِمِينَ . فَكَانَ يُعَذِّبُ الْجَارِيَةَ الْمُسْلِمَةَ إِذَا مَاوَقَعَتْ تَحْتَ طَائِلَةِ عِقَابِهِ بِالضَّرْبِ ، وَلا يَتْرُكُهَا حَتَّى يَمَلَّ هُوَ ضَرْبَهَا ، وَيَقُولُ لَهَا :

إِنِّى لَمْ أَتْرُكْكِ إِلاَّ مَلاَلَةً !

وَمَعَ ذٰلِكَ فَقَدْ كَانَ ذَا قَلْبٍ كَبِيرٍ : فِيهِ رَحْمَةٌ بِأَقَارِبِهِ ، وَبِهِ بِرٌّ وَعَطْفٌ عَلَى أَهْلِهِ وَذَوِى رَحِمِهِ ، فَكَانَ لِخُرُوجِ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مُهَاجِراً إِلَى الْحَبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقْعٌ شَدِيدٌ عَلَى نَفْسِهِ ، زَادَهُ مَا كَانَ مِنَ النَّجَاشِى مِنْ بَسْطِ حِمَايَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْعِهِمْ مِمَّنْ شَخَصُوا إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ إِعَادَتَهُمْ . لِذٰلِكَ ازْدَادَ غَضَبُ عُمَرَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَزَادَتْ نِقْمَتُهُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ الَّذِى شَتَّتَ قُرَيْشاً ، وَقَسَّمَ عَشَائِرَهَا ، وَفَرَّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا ، وَكَانَ سَبَباً فِيمَا وَقَعَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ مِنْ إِحَنٍ وَخِلَافٍ وَقَرَّ عَزْمُ عُمَرَ عَلَى قَتْلِ مُحَمَّدٍ !

وَفِى ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَ وَقَدْ وَتَقَلَّدَ سَيْفَهُ ، وَذَهَبَ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ مُحَمَّدٌ مَعَ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ عَمُّهُ حَمْزَةُ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعَلِىٌّ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَالْتَقَى بِعُمَرَ فِى الطَّرِيقِ رَجُلٌ مِنْ بَنِى عَدِىٍّ ، اسْمُهُ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، وَكَانَ قَدْ أَسْلَمَ سِرًّا وَأَخْفَى إِسْلَامَهُ عَنْ قَوْمِهِ خَوْفاً مِنْهُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِهِ فَلَمَّا رَأَى عُمَرَ يَجِدُّ فِى السَّيْرِ ، وَقَدْ تَوَشَّحَ سَيْفَهُ ، سَأَلَهُ : إِلَى أَيْنَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ ؟ !

قَالَ عُمَرُ : أُرِيدُ هٰذَا الصَّابِئَ الَّذِى فَرَّقَ أَمْرَ قُرَيْشٍ ، وَسَبَّ آلِهَتَهَا .

وخشى نُعيمٌ على رسولِ اللهِ غضبةَ عمرَ ، وأرادَ أنْ يصرفَهُ عمَّا اعتزمَ أنْ يفعلَ ، فقالَ لهُ :

واللهِ لقدْ غرَّتْكَ نفسُكَ مِنْ نفسِكَ ياعُمرُ . أترَى بَنِى عبدِ مَنافٍ تاركيكَ تمشِى علَى الأرضِ وقدْ قتلْتَ مُحمَّداً ؟ ! أفلا ترجعُ إلَى أهلِ بيتكَ فتُقيمَ أمرَهُمْ ؟ !

قالَ عُمرُ : وأىَّ أهلِ بيْتِى تقْصِدُ بقولكَ ؟ !

قالَ نُعيمٌ : زوجَ أُختِكَ ، وابنَ عمِّكَ : سعيدَ بنَ زيدِ بنِ عمْرو ؛ وأُختَكَ فاطمةَ بنتَ الخطَّابِ فقدْ واللهِ أسْلمَا ، وتابعَا مُحمَّداً علَى دِينهِ ، فعليْكَ بهِما .

ودهِشَ عُمرُ لِقولِ نُعيْمٍ ، وغضِبَ ، فلَمْ يكُنْ يعلَمُ بإسْلامِ أُختِهِ وزوْجِهَا ، إذْ كانَا يُخفيانِ أمرَهُما عنهُ . وولَّى وجْهَهُ شطرَ بيْتِهِما ، وقدِ استعرَّ فى صدْرِهِ الْغيْظُ ، وانتفختْ أوْداجُهُ بنارِ الْغضبِ .

ووصلَ إلَى منزلِ أُختِهِ ، فطرقَ سمْعَهُ صوْتُ هينمَةٍ لِقارِئٍ يقْرأُ ، فقرعَ

البَابَ بِشِدَّةٍ فَزِعَ لَهَا مَنْ بِالدَّاخِلِ ، وسَأَلوا :

مَنْ بِالبَابِ ؟ !

فَأَجَابَ : أَنا عُمَرُ . وفَزِعَ مَنْ بِالْمَنزِلِ لِسَماعِ صَوْتِ عُمَرَ ، وارْتَبكُوا ، وأَسرَعُوا يُخْفُونَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ !

كانَتْ فَاطِمَةُ أُخْتُ عُمَرَ وزَوْجُها يَجْلِسَانِ حِينَذَاكَ إِلَى خبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ الَّذِى خَصَّصَهُ لَهُما رَسُولُ اللهِ لِيُعَلِّمَهُمَا الْقُرآنَ . وَيَقرَأَ عَلَيْهِمَا مايُنزِّلُ اللهُ مِنْ آياتٍ . وكَانَ خبَّابٌ يَقرأُ لَهُما شَيئاً مِنْ سُورَةِ طه . فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَ عُمَرَ هَرَعَ خبَّابٌ فاخْتبَأَ فى مَكانٍ داخِلَ الدَّارِ ، وَأَسرَعَتْ فاطِمَةُ فأَخْفَتْ خَلْفَها الصَّحِيفَةَ الَّتى كانَ يَقرأُ فِيها خبَّابٌ ، وَذَهَبَ زَوْجُها سَعِيدٌ فَفتَحَ بَابَ الدَّارِ لِيَدْخُلَ عُمَرُ .

وَدَخَلَ عُمَرُ كَالأَسَدِ الْهائِجِ يَدُورُ بِعَينَيْهِ فى أَرْجَاءِ الدَّارِ ، ويَبْحثُ عَنْ مَصْدَرِ الصَّوْتِ الَّذِى سَمِعَ فَلَمْ يَرَ أَحَداً غَيرَ أُخْتِهِ وَزَوْجِهَا ، فَسَأَلَهُما مُحتَدًّا غاضِباً : ماهٰذِهِ الْهَينَمَةُ الَّتى سَمِعْتُ ؟ !

فَأَنْكَرَا خَوْفاً مِنْهُ وَقَالاَ : مَا سَمِعْتَ شَيئاً .

قَالَ : بَلْ قَدْ عَلِمْتُ أَنكُمَا قَدْ تابَعتُما مُحَمَّداً عَلَى دِينِهِ .

ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَى زَوْجِ أُخْتِهِ يَبطِشُ بِهِ ، وَقامَتْ فاطِمَةُ تُدافِعُ عَنْ زَوْجِهَا ، فَضَرَبَهَا ، فَشَجَّ رَأْسَهَا ؛ فَصاحَتْ هِىَ وَزَوْجُهَا ، وَقالاَ : نَعَمْ ، لَقَدْ أَسْلَمنَا ، فَاصْنَعْ مَا بَدَالَكَ ! !

هَدَأَ عُمَرُ ، وَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ لأُخْتِهِ حِينَ رَأَى الدَّمَ يَسِيلُ مِنْ رَأْسِهَا ؛ وَوَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى الصَّحِيفَةِ الَّتِى كَانَ يَقرَأُ مِنْها خَبَّابٌ ، فَقالَ لأُخْتِهِ : أَعْطِنى هٰذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِى كُنتُما تَقرَأَانِ مِنْها : فَقالَتْ : إِنَّا نَخْشَاكَ عَلَيْها .

فَأَقْسَمَ عُمَرُ لأُخْتِهِ أَنَّهُ سَيَرُدُّها إِلَيهَا ، فَأَعْطَتْهُ فَاطِمَةُ الصَّحِيفَةَ ، وَقَدْ طَمِعَتْ فى إِسْلامِهِ إِذَا مَاقَرَأَهَا .

أَخَذَ عُمَرُ الصَّحِيفَةَ ، وَنَظَرَ فِيهَا ، وَقَرَأَ ما أَذْهَلَهُ ، وَمَلأَ قَلبَهُ رَوْعَةً وَجَلاَلاً ، وَلَمْ يَملِكْ أَنْ قَالَ :

ما أَحْسَنَ هٰذَا الْكَلَامَ وَأَكرَمَهُ ! !

وَسَمِعَ خبَّابٌ مِنْ مَخبَئِهِ قَولَ عُمَرَ ، فَخرَجَ إِلَيهِ قَائِلاً :

يَا عُمَرُ ؛ وَاللهِ إِنِّى لأَرْجُو أَنْ يكُونَ اللهُ قَدْ خصَّكَ بِدعوَةِ نَبِيِّهِ إِذْ دَعَا : اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإِسْلامَ بِأَبِى الْحكَمِ بْنِ هِشَامٍ ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخطَّابِ ؛ فَاللهَ اللهَ يَا عُمَرُ .

فقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَدُلَّنِى ياخبَّابُ عَلَى مُحَمَّدٍ حتَّى آتِيَهُ فأُسْلِمَ .

فَقَالَ خبابٌ فَرِحاً : هُوَ فى دَارِ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِى الأَرْقَمِ عِنْدَ الصَّفَا .

يَاأَللهُ ! ! ، . كَمْ كَانَتْ فَرْحَةُ فاطِمَةَ بِإِسْلام أَخِيهَا عُمَرَ ، وَكَمْ كَانَ سُرُورُ زَوْجِهَا بِإِسْلامِ صِهْرِهِ عُمَرَ ! !

دَخَلَ عُمَرُ عَلَيْهِمَا مُشْرِكاً بِاللهِ ، مُكَذِّباً بِرَسُولِهِ ، وَها هُوَ ذَا يَخرُجُ مُوَحِّداً بِاللهِ ، مؤمِناً بِمَا جاءَ بِهِ رَسُولُهُ ، يَسْعَى إِلَيْهِ لِيَشْهَدَ بَيْنَ يَدَيهِ بِإِيمَانِهِ ، وَيُشْهِرَ أَمَامَهُ إِسْلامَهُ ! !

وَأَتَى عُمَرُ بابَ الأَرْقَمِ وَقَرَعَهُ ، فَأَتَاهُ صَوْتُ بِلالٍ يَسْأَلُ : مَنْ بِالبَابِ ؟ !

أَجابَ : أَنا ابْنُ الْخَطَّابِ .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ حِينَذَاكَ مَعَ جَمْعٍ مِنْ صَحابَتِهِ بَينَهُمْ حَمزَةُ وَأَبو بكْرٍ وَعَلِيٌّ وَبِلالٌ ، وَجاءَ بِلالٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَقُولُ :

يَارَسُولَ اللهِ ؛ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالبَابِ ، وَإِنَّا لَنَخْشَى شَرَّهُ إِنْ فَتَحنَا لَهُ .

فَقالَ رَسُولُ اللهِ : أَدْخِلْهُ فَإِنْ أَرَادَ خَيْراً بَذَلْنَاهُ لَهُ .

وَقَالَ حَمزَةُ : وَإِنْ أَرادَ شَرًّا كَانَ قَتْلُهُ عَلَينَا هَيِّناً .

وَذَهَبَ بِلالٌ يَفتَحُ البَابَ لِعُمَرَ ، وَذَهَبَ مَعَهُ حَمزَةُ لِيَشُدَّ أَزْرَهُ إِذَا مَابَدَرَ مِنْ عُمَرَ بَادِرَةُ شَرٍّ ، أو بَدَا مِنْهُ بَدَاءٌ بِالأَذَى .

وَفُتِحَ الْبابُ ، وَدَخَلَ عُمَرُ ، فَأَحاطَ بِعَضُدَيْهِ سَاعِدَا بِلالٍ ، وَكَبَّلَتْ يَدَيهِ قَبضَتَا حَمزَةَ .

وَدَعَا رَسُولُ اللهِ رَبَّهُ حِينَ رَأَى عُمَرَ دَاخِلاً قَائِلاً :

اللَّهُمَّ أَخْرِجْ مافِى صَدْرِ عُمَرَ مِنْ غِلٍّ ، وَأَبْدِلْهُ إِيماناً . أَطْلِقَا ياحَمزَةُ وَيابِلالُ سَراحَهُ .

وَأُطْلِقَ سَرَاحُ عُمَرَ ، فَتقدَّمَ حتَّى كَانَ أَمامَ رَسُولِ اللهِ ، فَقالَ لَهُ الرَّسُولُ :
ماأَنْتَ مُنتهٍ ياعُمَرُ حتَّى يُنْزِلَ اللهُ بِكَ قَارِعَةً ، فِيمَ جِئْتَ يابْنَ الْخَطَّابِ ؟ !
قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ : جِئْتُ أَشْهَدُ بَيْنَ يَدَيْكَ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنكَ رَسُولُ اللهِ .

ما كَادَ عُمَرُ يُعْلِنُ إِسْلاَمَهُ حتَّى اهْتَزَّتْ أَرْكَانُ الدَّارِ بِصَيْحَةٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ :

اللهُ أَكْبَرُ . . ! ! اللهُ أَكْبَرُ . . . اللهُ أَكْبَرُ .

امتَلأَ الْمكَانُ رَوْعَةً وَرَهبَةً ، وَجَلالاً وَسُمُوًّا .

كَلِمَةٌ انْطلَقَتْ مِنْ أَفْوَاهِ الْحَاضِرِينَ تُعبِّرُ عَنْ عَظِيمِ فَرحِهِمْ بِإِيمَانِ عُمَرَ ، وَتَشْهَدُ بِمبلَغِ سُرُورِهِمْ بِدُخُولِهِ فى زُمرَةِ الْمُسْلِمِينَ . وَحَمِدَ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ عَلَى إِسْلامِ عُمَرَ وَمَسَحَ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ لَهُ صَدْرَهُ ، وَدَعَا لَهُ رَبُّهُ بِالْهِدَايَةِ وَالثَّباتِ .

وَجَلَسَ عُمَرُ مَعَ الرَّسُولِ وَأَصْفِيَائِهِ يَتَحَدَّثُونَ ، فَقَالَ عُمَرُ :

يَارَسُولَ اللهِ ، أَلسنَا عَلَى حَقٍّ إِنْ مِتْنَا أَوْحَيِينَا ؟ !

قَالَ مُحَمَّدٌ : بَلَى ؛ وَالَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ إِنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ إِنْ مُتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ .

قَالَ عُمَرُ : فَفِيمَ الاخْتِفَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ !

قَالَ مُحَمَّدٌ : لأَنَنَا لاَنَزَالُ قِلَّةً ، وَأَعْدَاؤُنَا كَثِيرُونَ .

قَالَ عُمَرُ : وَاللهِ لايُعبَدُ اللهُ سِرًّا بَعْدَ اليَومِ ، وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَابَقِىَ مَجْلِسٌ كُنتُ أَجْلِسُ فِيهِ بِالْكُفْرِ إِلاَّ أَظْهَرْتُ فِيهِ الإِسْلاَمَ .

فَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَصَحْبُهُ يَقْصِدُونَ الْكَعْبَةَ فى صَفَّيْنِ : عَلَى أَحَدِهِمَا عُمَرُ ، وَعَلَى الآخَرِ حَمْزَةُ . فَكَانَ لِمَا يُثِيرُهُ وَطْءُ أَقْدَامِ هٰذَا الْجَمْعِ كَدِيدٌ ككَدِيدِ الطَّحِينِ ، حَتَّى أَتَوا الْكَعْبَةَ فَصَلَّوْا فِيهَا ، وَجَهَرُوا ؛ أَنْ لاَإِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ . فَكَانَ هٰذَا الْيَوْمُ بَدْءَ إِشْرَاقِ الإِسْلاَمِ وَبَدْءَ إِعْلاَنِ أَهْلِ الأَرْضِ بِالدِّينِ الْجَدِيدِ فى قُوَّةٍ .

وَقَدْ أَصَابَ قُرَيْشاً فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ من الْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ مَالَمْ يُصِبْهَا مِثْلُهُ قَطُّ . وَكَانَتْ فَرحَةُ الْمُسْلِمِينَ بِإِسْلاَمِ عُمَرَ ، لاَ تَقِلُّ عَنهَا فَرحَةُ عُمَرَ بِدُخُولِهِ فى

الإِسْلاَمِ .

فَمَا تَوَانَى عُمَرُ فى لَيلَةِ إِسْلاَمِهِ عَنْ أَنْ يَطُوفَ يُعْلِنُ إِسْلاَمَهُ عَلَى الْمَلإِ وَيَدْعُو إِلَيهِ بِنَفْسِ الْحَمَاسَةِ وَالْقُوَّةِ الَّتِى كَانَ يَنهَى بِهَا عَنهُ . فَذَهَبَ إِلَى خَالِهِ أَبِى جَهْلٍ ، أَشَدِّ رِجالِ قُرَيْشٍ عَدَاوَةً للإِسْلاَمِ ، وَكَرَاهِيَةً لِلرَّسُولِ . وَدَقَّ عَلَيهِ البَابَ ، فَخَرَجَ إِلَيهِ أَبو جَهْلٍ يُرَحِّبُ بِهِ قَائِلاً : مَرْحَباً وَأَهْلاً بِابْنِ أُخْتِى ، مَاجَاءَ بِكَ ؟ !

أَجَابَ عُمَرُ : جِئْتُ لأُخْبِرَكَ أَنِى آمَنتُ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَصَدَّقْتُ بِمَا جَاءَ بِهِ .

فَمَا سَمِعَ أَبو جَهْلٍ قَولَ عُمَرَ حَتَّى كَادَ أَنْ يُصْعَقَ ، وَصَفَقَ البَابَ فى وَجْهِ ابْنِ أُخْتِهِ وَهُوَ يُهَدِّدُ غَاضِباً : قَبَّحَكَ اللهُ ، وَقَبَّحَ مَاجِئْتَ بِهِ .

وَتَأَلَّبَتْ قُرَيْشٌ عَلَى عُمَرَ ، يُؤْذُونَهُ وَيَنَالُونَهُ بِمَا يَكرَهُ ، فَقَاتَلَهُمْ بِحَدِّ سَيفِهِ ، وَهُوَ يَجَارُ بَينَهُمْ بِالشَّهَادَتَينِ :

أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ . مَنْ تَحَرَّكَ مِنْكُمْ لأُمَكِّنَنَّ

سَيْفٌ مِنْهُ .

وَمِنْ ذٰلِكَ الْحِينِ لَقَّبَ رَسُولُ اللهِ عُمَرَ بِالْفَارُوقِ ، إِذْ فَرَّقَ اللهُ بِهِ بَينَ الْحَقِّ وَالبَاطِلِ .

وَلَمْ تَقِفْ قُرَيْشٌ إِزَاءَ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ وَتكاثُرِهِمْ مكتوفَةَ اليَدَيْنِ ، بَلْ سَعَتْ سَعيَها تَبْحَثُ عَنِ الْحِيَلِ الَّتى تَحدُّ مِنْ تكاثُرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَصرِفُهُمْ عَنِ اتِّباعِ رَسُولِهِمْ مُحَمَّدٍ .

فَاجتَمَعَ رِجَالُهَا لِهٰذَا الْغَرَضِ يُفَكِّرُونَ وَيَتَدبَّرونَ فى أَنْجَعِ الوَسَائِلِ الَّتى يتَّخِذُونَهَا إِزَاءَ مُحَمَّدٍ وَأَتباعِهِ وَمَنْ يُناصِرُه وَيُدافِعُ عَنْهُ . وَبَعْدَ تَفْكِيرٍ وَتَدْبِيرٍ استَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى مُحَارَبَةِ مُحَمَّدٍ وَأَتباعِهِ وَأَنْصارِهِ بِأَنْ يُقَاطِعُوهُمْ مُقَاطَعَةً تَامَّةً . وَأَنْ يُحَاصِرُوهُمْ مُحَاصَرَةً اقْتِصَادِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً ، فَلاَ يَبِيعُونَ لَهُمْ شَيئاً .

وَلايَبتَاعُونَ مِنْهُمْ شَيئاً ، وَلاَ يَتزوَّجُونَ مِنْهُمْ ، وَلايُزوِّجُونَهُمْ ، وَلايكُونُ بَينَهُمْ وَبَينَهُمْ أَىُّ مُعَامَلَةٍ أَو اخْتِلاَطٍ أَو اتِّصالٍ لأَىِّ سَبَبٍ مِنَ الأَسبَابِ .

وَتَوْكِيداً لِهٰذَا الاِتِّفَاقِ كَتبُوا صَحِيفَةً يَشْهَدُونَ فِيهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا اعْتزَمُوا أَنْ يَفْعَلُوهُ ، وَاحْتِراماً لِذٰلِكَ عَلَّقُوا الصَّحيفَةَ فى جَوْفِ الْكَعبَةِ حتَّى لايكُونَ بِهَا نَقْصٌ ، وَحتى لايكُونَ هُناكَ رُجُوعٌ عَمَّا جَاءَ فِيهَا أَو انْتِكاسٌ .

ثُمَّ ذَهَبَ وَفْدٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى بَنى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالُوا لَهُمْ :

تَخَيَّرُوا بَيْنَ أَمرَيْنِ : فَإِمَّا أَنْ تُسَلِّمُونَا مُحَمَّداً نَقتُلُهُ ، وَبِذٰلِكَ تُرِيحُوننا وَتُرِيحُونَ أَنْفُسَكُمْ وَنُعْطِيكُمْ فى ذٰلِكَ دِيَةً عَظِيمَةً ، وَإِمَّا أَنْ نُحَاصِرَكُمْ مَعَهُ وَلاَنَبِيعَكُمْ ، وَلاَ نَبْتَاعَ مِنكُمْ حتى نُمِيتَكُمْ جَمِيعاً جُوعاً . فَمَاذَا تَرَوْنَ ؟

فَأَبَى بَنُو عبدِ الْمُطَّلِبِ تَسْلِيمَ مُحَمَّدٍ لأَعْدَائِهِ كَى يَقتُلُوهُ ، وَقَالُوا : لَنْ نُسَلِّمَ مُحَمَّداً أَبداً . فَقَالُوا لَهُمْ :

إِذَنْ ، فَهُوَ حِصَارٌ عَلَيْكُمْ وَمُقَاطَعَةٌ بَيننَا وَبَينَكُمْ .

وَهٰكَذَا بَدَأَتْ سِيَاسَةُ الْحِصَارِ وَالْمُقَاطَعَةِ وَالتَّجْوِيعِ بَينَ قُرَيْشٍ وَبَينَ بَنى

عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَقْرِبَائِهِمْ مِنْ بَنِى هَاشِمٍ الَّذِينَ انْحَازُوا إِلَيْهِمْ جَمِيعاً ، مَاعَدَا عَبْدَ الْعُزَّى بْنَ عبدِ الْمُطَّلِبِ (أَبا لَهَبٍ) فَإِنَّهُ خَرَجَ إِلَى قُرَيْشٍ وَظَاهَرَهُمْ عَلَى آلِهِ : وَكَانَ مِنْ أَكثَرِ الْمُتَهَكِّمِينَ عَلَيهِمْ ، الشَّامِتِينَ بِهِمْ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ حَضَّ النَّاسَ عَلَى مُجَانَبَتِهِمْ ، وَعَدَمِ البَيْعِ لَهُمْ وَالشِّرَاءِ مِنْهُمْ .

وهٰكَذَا انْحَصَرَ بَنُو هَاشِمٍ فى شِعْبِ أَبِى طَالِبٍ بِأَطرافِ مكَّةَ لا يُعَامِلُونَ وَلا يُعَامَلُونَ ، وَلايَستَطِيعُونَ مِنْ مَحْبِسِهِمْ فكَاكاً إِلاَّ إِذَا أَتتِ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ الَّتى تُوقَفُ فيهَا الْحُرُوبُ بَينَ الْعَرَبِ وَتكُفُّ فِيهَا الْخُصُومَاتُ وَالْمُنَازَعَاتُ .

وفى هٰذِهِ الأَشْهُرِ كَانَ يَخرُجُ مُحَمَّدٌ لِيُوَاصِلَ دَعوَتَهُ .

كَانَ الْحُجَّاجُ يَفِدُونَ إِلَى مكَّةَ فى الأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَهِىَ : ذُو الْقِعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ ؛ وَكَانَ التُّجَّارُ يُقِيمُونَ أَسوَاقَهُمْ ، وَيَعْرِضُونَ تِجَارَاتِهِمْ بِالْقُرْبِ مِنْ مكَّةَ ، فَيخرُجُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللهِ ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِالْجَزَاءِ الطَّيبِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ ، وَيُنْذِرُهُمْ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ لِمَنْ يَصُدُّ عَنْهُ ، وَيَكْفُرُ بِهِ .

وَفى فترةِ الْحِصارِ هٰذِهِ عادَ إِلَى مكَّةَ مَنْ كانَ قَدْ هاجرَ إِلَى الْحبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، لأَنهُمْ وَصلَ إِلَى عِلْمِهِمْ مَاأَصابَ الإِسْلامَ مِنْ عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ بِإِسْلامِ عُمَرَ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ جَهَرُوا بِدعوتِهِمْ عَلَى الْمَلإِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَنَّ نُورَ الإِسْلامِ أَضَاءَ أَرْجاءَ مكَّةَ ، وَبَدَأَ يَتجَاوَزُها إِلَى ما حَوْلَها .

وَلٰكِنَّهُمْ ماكَادُوا يَقتَرِبُونَ مِنْ مكَّةَ حتى تَوَارَدَتْ عَلَيْهِمْ أَخبارُ الْحِصارِ الشَّدِيدِ الَّذِى أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ ، وَأَرْهَقَتْ بِهِ الْمُسْلِمِينَ ، فَرَأَوْا أَنْ يَرتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ عائِدِينَ .

وَأَذِنَ النَّبِىُّ لأَصْحَابِهِ وَرِفَاقِهِ فى الْحِصارِ بِالْهِجرَةِ لِمَنِ استَطَاعَ إِليها سَبِيلاً فِراراً مِمَّا هُمْ فيهِ مِنْ عَنَتٍ وَإِرْهَاقٍ . فَهاجَرَ مِنْهُمْ عَدَدٌ غَيرُ قَلِيلٍ ، وَلَحِقُوا بِأَصْحابِهِمْ مِنَ الْمُهاجِرِينَ الأَوَّلِينَ الَّذِينَ عَادُوا إِلَى الْحَبَشَةِ آمِنِينَ .

وَطَالَ الْحِصارُ عَلَى مَنْ بَقِى مِنَ الْمُحَاصَرِينَ ، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ الأَمْرُ ، وَلٰكِنَّ بَنِى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ظَلُّوا جُلْداً يُعانُونَ الْجُوعَ وَالْحِرْمانَ دُونَ أَنْ يُفرِطُوا فى مُحَمَّدٍ أَوْ يُسَلِّمُوهُ ، بَلْ ظَلَّ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ يَحُوطُهُ بِعَطْفِهِ وَيَرْعَاهُ بِعِنايَتِهِ ، وَيُرْقِدُهُ

بجانبه إذا نام ، ليقوم على حراسته ؛ وإذا اضطره أمر من الأمور إلى تركه أحل محله أحد أولاده ليتخذ مكانه فى السهر عليه .

ولولا ما كان يتدارك به المحاصرون من بعض ذوى القربى والقلوب الرحيمة فيحملون إليهم الطعام سرًا - لهلكوا جوعاً ، فقد كان حكيم بن حزام يورد لعمته خديجة أم المؤمنين القمح والإدام سرًا فتوزعه على المحاصرين ، كما كان هشام بن عمر أعطف قريش على المحاصرين ، فكان يوقر البعير طعاماً ولباساً ، ويأتى به إلى شعب أبى طالب ليلاً ، فإذا استقبل فم الشعب وكز البعير ، فيدخل بما حمل إلى الشعب وأهله . ولم يكف هشام عما كان يفعل من بر المحاصرين ، برغم ما كان يلاقى من أذى قريش إذا فطنوا إلى أمره . وكان من أمر هشام أيضاً أنه سار إلى زهير بن أبى أمية ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب وقال له :

يا زهير ؛ أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وأخوالك كما تعلم لا يبيعون ولا يبتاعون ! . . والله لو كان هؤلاء أخوال أبى الحكم (يقصد

أَبا جَهْلٍ) ثُمَّ دَعَوْتَهُ إِلَى مِثْلِ مَادَعَاكَ إِلَيهِ مَاأَجَابَكَ أَبداً .

فَقَالَ زُهَيْرٌ : وَما أَصْنَعُ وَأَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ؟ ! وَاللهِ لو كَانَ مَعى رَجُلٌ آخَرُ لَنَقَضْتُهَا . قَال هِشَامٌ : وَإِنْ وَجَدْتَ رَجُلاً ؟ !

قَالَ : مَنْ ؟ قَالَ : أَنَا . قَالَ زُهَيْرٌ : فَابْغِنَا ثَالثاً .

وهكَذَا اتَّفَقَ الرَّجُلاَنِ عَلَى الْعَمَلِ عَلَى نَقْضِ الصَّحِيفَةِ الَّتى أَبرَمَتْهَا قُرَيْشٌ . وَذَهَبَا يَسْعَيَانِ إِلَى ضَمِّ مَنْ يُؤَيِّدُهُمَا فى ذٰلِكَ مِنَ الرِّجَالِ ، فَانْضَمَّ إِلَيهِمَا الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ ، وَأَبو البَخْتَرِى بْنُ هِشَامٍ ، وَزَمْعَةُ بْنُ الأَسوَدِ ، وَاتَّفَقُوا جَمِيعاً عَلَى السَّعْى فى نَقْضِ الصَّحيفَةِ وَكُلُّهُمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَا هِشَامٌ ، وَالْمُطْعِمُ ، وَأَبو البَخْتَرِى ، وَزَمْعَةُ – فَجَلَسُوا بِأَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْكَعبَةِ ، وَغَدَا زُهَيْرٌ إِلَى الْكَعبَةِ فَطَافَ بِهَا ، ثُمَّ أَقبَلَ عَلَى النَّاسِ يَقُولُ :

يَأَهْلَ مكَّةَ : أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ ، وَنَلبَسُ الثِّيَابَ ، وَبَنُو هَاشِمٍ هَلكَى ، لاَيبتَاعُونَ ، وَلاَيُبْتَاعُ مِنْهُمْ ؟ ! وَاللهِ لاَأَقْعُدُ حتى تُشَقَّ هٰذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ

الظَّالِمَةُ . فَهَبَّ أَبو جَهْلٍ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَجْلِسُ ، وَانْبَرى لِزُهَيرٍ صَائِحاً عَلَيْهِ : كَذَبتَ ، وَاللهِ لاتُشَقُّ ! حِينَئِذٍ عَلَتْ أَصْوَاتُ أَصْحَابِ زُهَيرٍ مُؤَيِّدِينَ لِرَأْيِهِ ، مُكَذِّبِينَ وَمُحَقِّرِينَ لِرَأْيِ أَبِى جَهْلٍ . فَأَدْرَكَ أَبو جَهلٍ أَنَّ الأَمرَ مُتَّفَقٌ عَلَيهِ ، وَمُمَهَّدٌ لَهُ ، فَسَكَتَ عَلَى مَضَضٍ .

فَقَامَ الْمُطْعِمُ إِلَى الصَّحِيفَةِ لِيَشُقَّهَا ، فَوَجَدَ الأَرَضَةَ قَدْ أَكَلَتْهَا ، إِلاَّ الْكَلِمَةَ الَّتِى افْتُتِحَتْ بِهَا : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ .

وَبِانْتِقَاضِ الصَّحِيفَةِ الَّتِى كَتَبَتْهَا قُرَيْشٌ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ مِنَ الشِّعْبِ إِلَى حَيْثُ يُوَاصِلُ مُحَمَّدٌ دَعْوَتَهُ وَجِهَادَهُ .

وَخَلَصَ مُحَمَّدٌ مِنْ مِحنَةِ الْحِصَار . وَلٰكِنْ مَا كَانَ يَنتَظِرُهُ مِنَ الْمِحَنِ كَانَ أَشَدَّ وَأَنْكَى فَلَمْ يَلبَثْ أَبو طَالِبٍ أَنْ مَرِضَ ، فَلَمَّا اشتَدَّتْ بِهِ الْعِلَّةُ وَعَرفَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ نِهَايَتَهُ قَدْ قُرُبَتْ ، حَزَمَتْ رَأْيَهَا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى أَنْ تَسِيرَ إِلَيهِ لِيَضَعَ حَدًّا بَينَهَا وَبَينَ مُحَمَّدٍ قَبلَ أَنْ يَمُوتَ . لأَنَّهُمْ إِذَا نَالُوا مُحَمَّداً بِالأَذَى بَعْدَ ذٰلِكَ ، عَيَّرَتْهُم الْعَرَبُ ، وَقَالَتْ تَرَكُوهُ . فَإِذَا مَاتَ عَمُّهُ نَالُوهُ !

فَشَخَصَ فِى ذٰلِكَ إِلَى أَبِى طَالِبٍ – وَهُوَ عَلَى فِرَاشِ مَرَضِهِ – نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَقَالُوا لَهُ :

يَا أَبَاطَالِبٍ ؛ أَنْتَ تَعْرِفُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِى لَكَ بَيْنَنَا ، فَأَنْصِفنَا مِنَ ابْنِ أخيكَ وَمُرْهُ أَنْ يَدَعَنَا لِدِيننَا ، وَنَدَعَهُ لِدِينه .

فَاستَدْعَى أَبو طَالِبٍ مُحَمَّداً ، وَعرَّفَهُ بِمَا جَاءَ قَوْمُهُ يَسْأَلُونَهُ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ :

لاأُرِيدُ إلاَّ كَلِمَةً وَاحِدَةً تُعْطُونيهَا .

قَالُوا : وَمَاهِىَ ؟

قَالَ : لاَإِلٰهَ إلاَّ اللهُ .

فَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :

إنَّ هٰذَا الرَّجُلَ ليسَ بِمُعْطِيكُمْ شَيئاً ، وَقَدْ أُعْذِرتُمْ فِيهِ .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ لِعَمِّهِ : أَىْ عَمِّ ؛ قُلْ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قُلْ يَاعَمَّاهُ : لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ .

فَقَالَ عَمُّهُ : لولاَ أَنْ تَعِيبكُمْ بِهَا الْعَرَبُ ، يَقُولُونَ جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ ، لأَعْطَيتُكَهَا يَابْنَ أَخِى ، وَلٰكِنْ عَلَى مِلَّةِ الأَشيَاخِ أَمُوتُ .

كَانَ مُحَمَّدٌ يُحِبُّ عَمَّهُ أَشَدَّ الْحُبِّ ، وَيُعِزُّهُ كُلَّ الإِعْزَازِ ، وَيَوَدُّ لَهُ سَعَادَةَ الدُّنْيَا ، وَسَعَادَةَ الآخِرَةِ ؛ لِذٰلِكَ كَانَ لِعَدَمِ دُخُولِهِ فِى الإِسْلَامِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِى نَفْسِهِ ، جَعَلَهُ فِى أَشَدِّ حَالَاتِ الْحُزْنِ وَالْكَمَدِ . فَقَالَ اللهُ لَهُ :

« إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

وَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ سَنَدُ مُحَمَّدٍ وَحَامِيهِ ، وَمَانِعُهُ وَشَادُّ أَزْرِهِ ، وَخَلَّفَهُ لِقُرَيْشٍ وَأَذَى قُرَيْشٍ ! !

وَلَمْ يَمْضِ إِلَّا قَلِيلٌ عَلَى فَاجِعَةِ مُحَمَّدٍ فِى عَمِّهِ ، حَتَّى أَصَابَتْهُ الأَقْدَارُ بِفَجِيعَةٍ أُخْرَى وَهِىَ أَنْ مَاتَتْ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ .

خَدِيجَةُ الزَّوْجَةُ الْحَنُونُ الْوَدُودُ ، الَّتِى بَسَطَتْ لِمُحَمَّدٍ مِنْ رُوحِهَا ، وَأَوْلَتْهُ حُبَّهَا وَعَطْفَهَا ، وَشَمَلَتْهُ بِرِعَايَتِهَا وَعِنَايَتِهَا ، طُولَ سَنَى وَحْيِهِ وَجِهَادِهِ الَّتِى عَاشَتْهَا .

خَدِيجَةُ أَوَّلُ مُؤْمِنَةٍ آمَنَتْ بِاللهِ ، وَالَّتِى قَرَأَهَا رَبُّهَا السَّلَامَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ، وَوَعَدَهَا فِى جَنَّتِهِ بِقَصْرٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَقَصَبٍ .

وَبِمَوْتِ أَبِى طَالِبٍ وَخَدِيجَةَ فَقَدَ مُحَمَّدٌ أَعْظَمَ عَوْنٍ وَأَكْبَرَ سَنَدٍ .

وَلٰكِنَّ نُورَ الإِسْلَامِ كَانَ قَدْ بَدَأَ يَمتَدُّ خَارِجَ مَكَّةَ ، فَلَيْسَ مُستَطَاعاً أَنْ يَخْبُوَ هٰذَا الضَّوْءُ بِعِنَادِ الْمُشْرِكِينَ : قَلُّوا أَوْ كَثُرُوا ، وَبِإِيذَائِهِمْ قَوُوا أَوْ ضَعُفُوا ، أَرَادَ اللهُ هٰذَا وَلَوكَرِهَ الْكَافِرُونَ .

رقم الإيداع	١٩٨٠/٣٩١٣
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٧٣٣٤-٦٦-٤

١/٨٠/٢٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)